جسد الأنثى في الشعر الذكوري: الصورة الشعرية ائتلافا واختلافا (من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي)

The body of female in male's poetry : poetic image similarly and differently (from Pr-islamic age to Abbassid age)

د/ امحمد لقدي

المركز الجامعي *تيبازة*

الملخص:

غير خافٍ أن الوصف عند العرب من أكبر الأغراض التي تكلموا فيها، وتفننوا في الإبداع في وصف كل ما يقع تحت حسهم، ويراه ناظرهم، وتزخر به بيئتهم. فلم يتوقف الوصف عندهم في الحيوان: من خيل وإبل وبقر وحش وغيره؛ بل تعداه إلى وصف الإنسان، عامة، حساً ومعنًى، ولم تخل قصائدهم من وصف المرأة بخاصة، بل أولاها كثير من الشعراء، عناية بالغة تنمي عن حالة نفسية معينة تربط الرجل بالمرأة، بل الأنثى بالذكر بشكل أدق.

نعم، وصفوا المرأة: جمالها الظاهر والباطن، وأخلاقها وطباعها؛ وتوغلوا في الوصف إلى حد الخلاعة والإغراء والمجون؛ كما سنقف عليه في هذه الورقة التي حددنا إطارها التاريخي في أربعة عصور؛ أي: من الجاهلية إلى العصر العباسي.

Abstract :

It is clear that the description among the Arabs was one of the biggest poetic purposes which they tackled, and they were creative in describing all what they feel, what the others see, and what their environment abounded.

Really their description did not stop in just describing animals such as ; horses, camels, cows, and monsters…etc,. however, they exceeded to describe human materially and morally, and their poems were approximately all about portraying the woman in particular, even many poets gave her perfect care which indicates moral situation that relates man with woman, yet the female with hte male in precise.

Well, they depicted woman : her apparent and hidden beauty, her ethics and modes to even porn, temptation, and dissipation, which we are going to deal with in this paper which we already identified its historical frame during four ages.i.e. from Pr-islamic age to Abbassid age)

الوصف، عند العرب، أكبر الفنون والأغراض التي تكلموا فيها وتفننوا في الإبداع في وصف كل ما يقع تحت حسهم، ويراه ناظرهم، وتزخر به بيئتهم. فوصفوا الحيوان من الخيل والإبل وغيرهما، حتى قيل: إن من أبلغ وصّاف الإبل: طرفة بن العبد البكري؛ ومن أشهر من تفنن في وصف الخيل: امرؤ القيس وأبو دؤاد الإيادي،.. (محمد بدر معبدي، أدب النساء في الجاهلية والإسلام، مكتبة الآداب، مصر2،1983-3).

ووصفوا الإنسان حسًّا ومعنًى، وما يتعلق بحياته الاجتماعية والسياسية من ظعن وإقامة، وقتال ونزال ومبارزة؛ ولم تخل قصائدهم من وصف المرأة بخاصة، بل أولاها كثير من شعراء الجاهلية عناية بالغة تنمي عن حالة نفسية معينة تربط الرجل بالمرأة، بل الأنثى بالذكر بشكل أدق.

نعم، وصفوا المرأة: جمالها الظاهر والباطن، وأخلاقها وطباعها؛ ولقد رصد لنا الأدباء والأخباريون نموذجا، ومن غير الشعر، عن لوحات فنية غاية في السبك والتصوير الفنيين. ومن هؤلاء عصام الكندية، وهند وجمعة بنتا الخَسّ،...وقد كان وصفهن للمرأة مستمد من بيئتهنّ، ومما ورثنه في تقاليدهنّ، مما يقع تحت نظرهن. ولقد جاء وصفهن لجمال المرأة في عصرهن بسيطا طبيعيا غير متكلّف، حتى ولو كان وصفهن مسجوعا سجع الكهان؛ فليس ذلك بضائر مادامت السليقة تنهمر وتنساب من الإنسان العربي انسياب الدمع من المقل!.

فبالنسبة لعصام الكندية، وكانت ذات عقل وبيان وأدب؛ ينقل لنا صاحب العقد الفريد (ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، دار الكتاب العربي، دت،235/3) وصفها ابنةَ عوف الشيباني، وتسمى أم إياس، وذلك حينما أرسلها عمرو بن حجر ملك كندة، وهو جد امرئ القيس، لتمتحن ما بلغه عن جمالها؛ بغية الزواج. فدخلت عصام عليها، فنظرت إلى ما لم تر عينها مثله قط، بهجةً وحسناً وجمالاً، ثم أوردت هذا الوصف:" رأيت جبهةً كالمرآة الصقيلة، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل المضفورة، إن أرسلته خلته السلاسل، وإن مشطته قلت عناقيد كرْم جلاه الوابل، ومع ذلك حاجبان كأنهما خُطّا بقلم، أو سوّدا بحُمم، قد تقوسا على مثل عين العَجْهَرَة (العجهرة: الرقيقة البشرة الناصعة البياض) التي لم يَرُعها قانص ولم يذعرها قسورة؛ بينهما أنف كحد السيف المصقول، لم يخنس به قصر، ولم يمعن به طول، حفت به وجنتان كالأرجوان، في بياض محض كالجمان، شق فيه فم

كالخاتم، لذيذ المبتسم، فيه ثنايا غُرّ، ذوات أَشَر، وأسنان تعد كالدر، وريق تنم إليك منه ريح الخمر، أو نشر الروض بالسحر؛ يتقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان، يقلبه عقل وافر، وجواب حاضر؛ يلتقي دونه شفتان حمراوان كالورد، يحلبان ريقاً كالشهد؛ تحت ذاك عنق كإبريق الفضة، ركب في صدر تمثال دمية (الدمية: الصورة المزخرفة)، يتصل به عضدان ممتلئان لحماً، مكتنزان شحماً؛ وذراعان ليس فيهما عظم يحس، ولا عرق يحبس، ركبت فيهما كفان: رقيق قصبهما، ليّن عصبهما، تعقد إن شئت منها الأنامل، وتركب الفصوص في حفر المفاصل؛ وقد تربع في صدرها حُقّان كأنهما رمانتان...".

فأتت على صفات الأنثى الحسية والمعنوية، بما ينطبق على الفتاة مما كان مألوفا ومرغوبا فيها؛ وأضفت على العروس أبهى آيات الصفات الخلقية والخلقية التي ينشدها الرجل في المرأة: من جبهة كالمرآة الصقيلة، وشعر حالك كظلمة الليل الداجي، وحاجب مزجج كأنه خط بقلم، وعين كعين الظبية الرقيقة، وأنف كحد السيف الصقيل، ووجنات حمراء كالأرجوان، وفم كالخاتم، وأسنان كاللؤلؤ، وخصر ضامر نحيل يكاد ينبتر من شدة نحوله، وقدمين صغيرتين تحملان ساقين وفخذين ممتلئتين. (محمد بدر معبدي،25-29 ؛ أيمن اللبدي، *المرأة والشعر العربي*، ناشري فلسطين، 2003، 7-8)

الصور الشعرية لجسد الأنثى في العصر الجاهلي:

هذا عن النثر، وأما الشعر فقد ظهرت قصائد ومقطوعات، هنا وهناك، تتغنى بالمرأة وتصف ما كانت عليه من جمال ورقة وأنوثة، وقد ظهر هذا واضحا جليا لدى شعراء المعلقات، وبخاصة في أربعة منهم: امرئ القيس، ثم الأعشى، فطرفة، وأخيرا عمرو بن كلثوم.

ورأس هؤلاء الأربعة-بلا شك-هو امرؤ القيس، فقد تناولت معلقته الوصف الحسي للأنثى، وبدأ هذا الوصف بقوله:

وبَيضَةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها تَمَتَّعْتُ مِن لَهوٍ بها، غَيرَ مُعجَلِ

والبيضة: استعارة للمراة الحسناء؛ قال في شرح المعلقات السبع (الزَّوْزَني، شرح المعلقات السبع، دار احياء التراث العربي- 2002، 47): تُشبّه النساء بالبيض من ثلاثة أوجه؛ وذكر: في صفاء اللون ونقائه. وربما شبّهت النساء ببيض النّعامة؛ وأريد أنهنّ بيضٌ يشوب ألوانهنّ صفرة. وكذلك بيض النعامة. وقال غيره (ابن الأنباري، *شرح المعلقات*

العشر، المكتبة العصرية، صيدا-لبنان 2004،75 ؛ التبريزي، *شرح المعلقات السبع*، دار المحابر، الجزائر 2011، 38): شبهها بالبيضة؛ لصفائها وملاستها.

ثم انتقل إلى وصف الخاصرة، والساقين، والطول والاعتدال في القامة، وكثرة الشعر، فقال:

هصَرْتُ بفَوْدَيْ رأسِها فتمايلَتْ عليّ هضيمَ الكشْحِ رَيَّا الْمُخَلْخَلِ

فأشار هنا إلى كشحها، وهو الخاصرة، فوصفه بالضمور والدقة، ثم وصف ساقيها بالممتلئة لحما امتلاء بطن الريان.

وفي رواية ابن الأنباري:

مَدَدْتُ بِغُصْنَيْ دَوْمَةٍ فَتَمَايَلَتْ عليّ هضيمَ الكشْحِ رَيَّا الْمُخَلْخَلِ

شبه المرأة بالدَّوْمة، وهي شجرة، في طولها واعتدالها.

ثم تطرق إلى نواحي أخرى من جسد محبوبته، فقال:

مُهَفْهَفَةٌ بيضاءُ غيرُ مُفَاضَةٍ تَرائِبُهَا مصْقُولةٌ كالسَّجَنْجَلِ

فذكر هنا أنها خفيفة اللحم، التي ليست برهلة ولا ضخمة البطن؛ ثم أشار إلى موضع القلادة من الصدر حيث شبهه بسبيكة الفضة أو الذهب في نقائها ولمعانها.

ولم ينس امرؤ القيس سحر العينين، وجمال الخدين، وبسمة الثغر؛ بقوله:

تَصُدّ وتُبدي عَنْ أَسِيْلٍ وَتَتّقي بناظِرَةٍ منْ وَحشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ

قال في "شرح المعلقات السبع" (التبريزي، 40): ومعنى البيت أنها تعرض عن استحياء وتبسم، فيبدو لنا ثغرها. فخدّ هذه المرأة ذات العينين النَّجْلاوَيْنِ السوداوَينِ، كان أسيلاً. وهي صورة تقليدية لجمال المرأة العربيّة؛ يبدو أنّ امرأ القيس هو أوّل من سنّها للشعراء، فظلوا يردّدون، من بعده، هذه الأوصاف كما جاءت في شعره.

وانتقل إلى وصف العنق، فقال:

وجِيدٍ كجيدِ الرِّئْمِ ليسَ بفاحشٍ إذا هي نصَّتْهُ ولا بِمُعَطَّلِ

وجعله كعنق الظبي الأبيض الخالص البياض؛ فهو جميل حسن المنظر من غير حلي.

وجاء دور الشعر، وهو عنده بأوصاف معينة، فقال فيه:

وفرْعٍ يزينُ المتْنَ أسودَ فاحِمٍ أثيثٍ كَقِنْوِ النّخلةِ الْمُتَعَثْكِلِ

غدائرُهُ مسْتَشْزِراتٌ إلى العُلا تَضِلُّ العِقَاصُ في مُثنّىً ومُرْسَلِ

لقد كان شعَر محبوبته فاحما طويلا، فكان يشبه عِذْق النخلة العَيْدانة، وكانت غدائره مرفوعةً إلى أعلى. بل كان بعض هذه الغدائر مُثَنّىً، وبعضُه مرسَلاً على ظهرها؛ لكثافته.

وهنا يرجع امرؤ القيس إلى وصف الخصر والساقين مرة أخرى، قائلا:

وكَشْحٍ لطيفٍ كالْجَديل مخصَّرٍ وساقٍ كأُنْبوبِ السَّقِيِّ المذلَّلِ

والعرب إذا وصفت الشيء بالحسن جعلته لطيفا، فكذلك خصر محبوبته. وشبه ساقيها بالبردي، وهو الذي ينبت وسط النخل، في بياضه ونَعمته.

وختم الوصف الحسي لمحبوبته بطيب ريحها، وليونة بنانها وأناملها، فقال:

وتُضحِي فَتِيتُ الْمِسْكِ فوقَ فِراشِها نَؤُومُ الضُّحَى لمْ تَنْتَطِقْ عنْ تفَضُّلِ

قال التبريزي: كان فراشها في المسك: من طيب جسدها، لا أن أحدا فتت لها فيه مسكا.

وقال:

وتَعْطُو بِرَخْصٍ غيرِ شَثْنٍ كأنّه أَسَارِيعُ ظَبْيٍ أو مَسَاوِيكُ إِسْحِلِ

فشبه بنانها بأنه غير شثن؛ أي غير كزّ غليظ، بل إنه في ملاسته ولينه يشبه أغصان الإسحل، وهو شجر، الناعمة. (التبريزي، 39-40)

بينما يتجَسَّدُ وصف المرأةِ، في معلّقة طرفة بن العبد، في طول عنقها وحسنها كالظبية، وأنها تشبه البقر في حسن عينيها. ثم وصف ثغرها البسّام، ولثتها السمراء، ومشيتها المُتَرَهْيِنَة، وبشَرَتها البضّة، ووجهها الناضر؛ وهي مجموعة في قوله:

وفي الحَيّ أَحْوَى يَنفُضُ المَرْدَ شادنٌ مُظاهِرُ سِمطَيْ لُؤلُؤٍ وَزَبَرْجَدِ

خَذُولٌ تُراعي رَبْرَباً بِخَميلَةٍ تَنَاوَلُ أَطْرَافَ البَرِيرِ وَتَرْتَدِي

وَتَبسِمُ عَنْ أَلْمى كَأَنَّ مُنَوَّراً تَخَلَّلَ حُرَّ الرّملِ، دِعصٍ لهُ نَدِ

سَقَتْهُ إياهُ الشّمسَ إلاّ لِثاتِهِ أُسِفّ ولم تَكْدِمْ عَلَيهِ بِإِثْمِدِ

وَوَجهٌ كَأَنَّ الشّمسَ حَلَّتْ رِدَاءَها عَلَيْهِ، نَقيُّ اللّونِ لَمْ يَتَخَدّدِ

وأما الأعشى القيسي، فقد تفنن، هو الآخر، بوصف جسد محبوبته هريرة، فوصفها بالغرّاء، وهي واسعة الجبين، وبالفرعاء، وهي طويلة الشعر، وبأنها مصقولة

العوارض، أي: نقية الرّباعيات والأنياب. ووصفها بأنها صفر الوشاح، وهي أن تكون خميصة البطن دقيقة الخصر، وبأنها هِرْكَوْلة، أي: الضخمة الوركين الحسنة الخلق، وبأنها معتدلة المرفقين..؛ كلٌّ من قوله:

ودّعْ هريرةَ إنْ الركبَ مرتحلُ   وهلْ تطيقُ وداعاً أيها الرّجلُ؟
غَرّاءُ فَرْعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُها   تَمشِي الهُوَينا كما يَمشِي الوَجي الوَحِلُ

إلى أن قال:

إذا تُعالِجُ قِرْناً سَاعةً فَتَرَتْ   وَاهتَزّ منها ذَنُوبُ المَتنِ وَالكَفَلُ
مِلءُ الوِشاحِ وَصِفْرُ الدّرْعِ بَهكنَةٌ   إذا تَأتّى يَكادُ الخَصْرُ يَنْخَزِلُ
هِرْكَوْلَةٌ فُنُقٌ دُرْمٌ مَرَافِقُهَا   كَأَنَّ أَخْمَصَهَا بِالشَّوْكِ مُنْتَعِلُ

وألفينا عمرو بن كلثوم يصف من المرأة ذراعيها، وأنّهما تشبهان ذراعِي الناقةِ البيضاءِ غضاضةً وضخامةً وامتلاءً؛ وبياضَ لونِ جسدها وملاسته، ومنه الثديان؛ وفَتاءَ سِنّها، وطولَ قامتها، وضخامةَ مأْكَمَتِها، وهي العجيزة، حتّى إنّ الباب ليضيق عن سعتها فيه؛ وطراوةَ وبياضَ سالفتيها، وهما الساقان، ولطافَةَ كَشْحِها،...يقول في كلّ ذلك:

تُرِيكَ، إذا دَخَلَتَ على خَلاَءٍ   وَقَدْ أَمِنَتْ عُيُونَ الكاشِحينَا
ذِراعَيْ عَيْطَلٍ أَدْمَاءَ بِكْرٍ   تَرَبَّعَتِ الأَجَارِعَ والمُتُونَا
وَثَدْياً مِثْلَ حُقِّ العاجِ رَخْصاً   حَصَاناً من أَكُفّ اللامِسِينَا
وَنَحْراً مِثْلَ ضوْءِ البَدْرِ وَافَى   بِأَتمامٍ أَنَاساً، مُدْلَجينَا
وَمَتَنَيْ لَدْنَةٍ طَالَتْ وَنَالَتْ   رَوادِفُهَا، تَنُوءُ بِمَا يَلِينَا
وَمَأْكَمَةً يَضيقُ البابُ عَنْهَا   وَكَشْحاً قد جُنِنْت بِهِ جُنُونَا
وسَالِفَتَيْ رُخامٍ، أَوْ بِلَنْطٍ   يَرِنُّ خَشَاشُ حَلْيِهِما رَنينَا

وقد أعرضنا عن ذكر بعض الصفات التي تنسجم مع الأوصاف الجسدية، وربما كانت من لوازمها؛ كرقّة الملابس، وَشَفَافِةِ القِناع، ووسوسة الحليّ، ورنين الخلاخل، وخَشاش الأساور، واهتزاز الأقراط، وهيئة إرسال الشّعرِ، وكلَّ ما يمكن أن تَفْتِنَ به المرأةُ الرجلَ، وتُدَلِّهُ من جسدها، من خلال ملابسها وحركاتها...؛ لأن التبرّجُ معنىً ينصرف-في تصورنا- إلى كلّ تلك المغريات التي تغري الذَّكَر.

والملاحظ أن الشاعر الجاهلي لا يعنيه من هذه المرأة: لا عقلُها، ولا حسَبها، ولا نسبها؛ ولكن الذي يعنيه، فقط، هو طلب التّمتّع بجسمها وجمالها، فهو ينساق وراء لذّاته، في هذه الأبيات التي تمثّل عهد الجاهلية بحقّ؛ فلا ينظر إلى هذه المرأة إلاّ على أنّها جسم جميل يحقق المتعة واللذة والشهوة.

فصورة المرأة في المعلّقات، بشكل خاص، هي صورة أنثى تصلح لإطفاء الرغبة الجنسيّة العارمة لدى الذّكرِ؛ لا امرأة تشاطر الرجل حياته وآماله وآلامه، وتظاهره في الكدح اليوميّ، وتقاسمه جمال الحياة الروحية التي يبدو أنّها -من خلال ما وصلّنا من شعر جاهليّ على الأقلّ- كانت غائبةً من وجودهم إلاّ في مظاهر نادرة..

الصورة الشعرية لجسد الأنثى في صدر الإسلام.

لم تختلف كثيرا فلسفة الإغراق في وصف جسد الأنثى، صدر الإسلام، مع ما جاء به هذا الدين العظيم من أخلاق حميدة، وبما أرساه وغرسه من قيم روحية في نفوس الناس. ولعل أحسن مثال، على بقاء هذا الوصف الأنثوي المادي، ما قرأه كعب بن زهير بحضرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، في قصيدته المشهورة:"بانت سعاد". فبقي التشبب بالمحبوبة راسخا في أذهان هؤلاء الشعراء، امتدادا لأسلافهم من الشعراء الجاهليين.

نعم، قد أنشد كعب قصيدته تلك، واستهلّها ببيان ما لحق قلبَه من التَّيْم وذلّ الهوى، حتى كأنهما استوليا عليه؛ ثم ثنَّى بالوصف الجسدي، فقال في كلٍّ:

بَانَتْ سُعَادُ، فَقَلْبي اليَوْمَ مَتْبُولُ مُتيَّمٌ إثرَها لَمْ يُفْدَ مَكْبولُ

وما سُعَادُ غَدَاةَ البَيْنِ إذ رَحلوا إلاّ أغنُّ غضِيضُ الطَّرْفِ مَكحول

هَيْفَاءُ مُقْبِلةٌ عَجْزَاءُ مُدْبِرَةٌ لا يشتكي قِصَرٌ مِنْهَا ولاَ طُولُ

تجلو عوارِضَ ذي ظَلَمٍ إذا ابتسَمَتْ كأنّه مُنْهَلٌ بالرّاحِ مَعْلُول

فوصف رخامة صوتها بأنه أغنّ، وعينيها المتزيّنتين بالكحل. ثم انتقل ليصف بطنها بالهَيَف، وهو الضمور، وعجيزتها بأنها عريضة؛ وأنّ "سعاد" هذه معتدلة القامة؛ ليست بالطويلة البائنة ولا القصيرة المتردّدة. وختم بوصف ثغرها وعوارضها. (أيمن اللبدي،15-16)

وكذلك ما جاء في "العقد الفريد" و"الأغاني" (ابن عبد ربه،235/3 ؛ الأصفهاني، *الأغاني*، مطبعة الساسي، مصر 1323هـ، 152/3)، من أن العجّاج-والد رؤبة- قال. دخلتُ

المدينة فقصدتُ إلى مسجد النبيّ، صلى الله عليه وسلم، فإذا بأبي هُريرة-رضي الله عنه- قد أكبّ الناس عليه يسألونه، فقلت: أفرجوا لي عن وجهه. فأفرج لي عنه. فقلت له: إني إنما أقول:

طافَ الخَيالانِ فَهَاجَا سَقَما خَيَالُ أَرْوَى وخَيَال تَكْتُمَا
تُريكَ وَجْهاً ضَاحِكاً وَمِعْصَمَا وَسَاعِداً عَبْلاً وكَعْباً أَدْرَمَا

وفي رواية:

قامتْ تُريكَ خَشْيةً أن تَصْرِما ساقاً بَخَنْداةً وكعْباً أدْرَما

فما تقوله فيه؟ قال: قد كان رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم، يُنشَد مثلَ هذا في المسجد فلا ينكره.

وفي تلك الأبيات وصف العجّاج وجهها بالحسن والإشراق، ووصف معصمها وساعدها وساقها بالامتلاء والضخامة مع الحسن، وانتهى إلى ثديها فوصفه بالأملس، وأنه ليس لحجمه نتوء.

وهذا سُحيم عبد بني الحسحاس(ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، عالم الكتب، بيروت2003، 106)، الذي لاقى مصرعه بسبب تشبيبه بنساء بني الحسحاس؛ كان رقيق الشعر، وروي أن النبي، صلى الله عليه وسلم، رآه وكان يعجبه شعره. (الأصفهاني،235/5)

وله قصيدة جميلة، مطلعها:

عُميرةَ ودِّعْ إنْ تجهَّزتَ غاديا كفَى الشَّيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهِيا

حتى إن المفضَّل الضَّبّيّ كان يقول فيها: قصيدة الأسود- يعني سحيماً- ديباجٌ خسروانيّ. ولم تخلُ هذه القصيدة من وصف جسد المرأة، حيث قال فيها:

لياليَ تصطاد الرِّجالَ بفاحمٍ تراهُ أثيثاً ناعمَ النَّبتِ عافِيا
وجِيدٍ كجيدِ الرِّيم ليس بعاطلٍ من الدُّرِّ والياقوتِ والشَّذْرِ حالِيا
كأَنَّ الثُّرَيّا عُلِّقَتْ فَوقَ نَحْرِها وجَمْرَ غَضىً هَبَّتْ له الرِّيحُ ذاكِيا
أرَتْكَ غداةَ البينِ كفّاً ومِعْصماً ووجهاً كدينار الهرقليّ صافِيا
وأقبلن مِنْ أقصى البُيوت يَعِدْنني نواهدَ لا يَعْرِفن خلقاً سوائياً

فتعرض إلى شعر المرأة؛ ووصفه بالفاحم الناعم الطويل، ووصف جيدها، وشبّهه بجيد الظبي الفتيّ غير العاطل، ووصف نحرها الأبيض المشرق، ثم وصف الكف والمعصم، فالوجه المستدير كالدرهم، وانتهى إلى وصف نواهد محبوبته الجميلة.

ومن هؤلاء أيضا تميم بن أبي مقبل(ابن قتيبة، 121)، فقد نقل لنا بعض ما كان يراه ويشتهيه في محبوبته من الأوصاف الحسية لجسدها، فقال:

يَمْشينَ هَيْلَ النَّقَا مالَتْ جَوَانِبُهُ يَنْهَالُ حيناً ويَنْهَاهُ الثَّرَى حينا
يَهْزُزْنَ للمَشْي أَوْصَالاً مُنَعَّمَةً هَزَّ الجَنُوب ضُحًى عيدَانَ يَبْرِينَا
شُمٍّ مُخَصَّرَةٍ هيفٍ منعّمةٍ من كلِّ داءٍ بإذنِ الله يشفينا
كأنهنّ الظباءُ الأُدْمُ أَسْكَنَها ضالٌ بِغُرَّة أو ضالٌ بدارينا
أَوْ كاهْتزَازِ رُدَيْنِيٍّ نَدَاوَقَهُ أَيْدى التِّجَار فزادوا مَتْنَهُ لينَا

وأراد بقوله:" ينهال حينا ": تحرك أعجازهن إذا مشين، كما يتحرك جانب الرملة للانهيال فينهاه الثرى، وهو ما تحته من التراب أو الرمل الندي. وكذلك اهتزاز أوصالهن الناعمة في المشي. وشبه قدودهنّ بالرُّديني للينه وتثنّيه، ودقة خصرهن ونعومته، وأنهن مثل الظباء رشاقةً وقدّاً. وهو أجود-كما ذكر الأدباء- من كل ما قاله الناس في مشي النساء وحسن قدودهن.

وعن ثغر محبوبته، وأسنانها المأشورة، وطيب رائحتها، قال:

سَبَتْكَ بمأشور الثنايا كأنه أقاحِي غَداةٍ بات بالدَّجْنِ يُنْضَحُ

الصورة الشعرية لجسد الأنثى في العصر الأموي:

يرتبط تطور الشعر بمدى إمكانية تطور حياة المجتمع، ولعل من أهم الأسباب التي أثرت في الاتجاهات الأدبية للعصر الأموي، وبخاصة من حيث حضور هاجس الشعر الذي كشف عن صورة الأنثى الحسية، سلبا أو إيجابا؛ ذلك التداخل السياسي والاجتماعي والثقافي الذي ألم بخيال وواقع الشعراء؛ ليتنافسوا في بيان ما جادت به قرائحهم من الألفاظ والمعاني، التي تكشف خبايا الجسد الأنثوي في وقتهم وبيئتهم.

وأنجب حجاز الترف شعراء كالعرجي والأحوص ووضاح اليمن، وغيرهم؛ الذين رسموا في شعرهم الملامح الأولى لجسد المرأة، والتي اكتملت صورتها لدى كبير شعراء النساء وقتئذ: عمر بن أبي ربيعة.

ولقد أصبح الانغماس في الملذات شيئا مباحا، ومظهرا تتسم به هذه الحقبة وخاصة بالحجاز، كما سبق، الذي ازدهر فيه الغناء والإيقاع وفنون اللهو، في الغفلة المتعمدة للرقيب، الذي غض الطرف عمّا انهمك فيه الناس من لهو وترف وغناء، وحرية التمتع بملك اليمين: من سبايا الهند وفارس والروم وسواها من البلدان.

فكان الغزل أشبه موضوعات الشعر بالغناء، ومطلب النفوس من هذا مطلبها من ذاك، ومن هنا كان التجاوب بين حالتيهما: فمن آثار الموسيقى في الحجاز توجيهها موضوع الشعر إلى الغزل.

ومما يلاحظ أيضا بروز مجتمع الجواري إلى العلن، اللواتي أضفن التنوع في الجمال الأنثوي وحسن الصوت والغناء بالبيت الأموي حيث كان منهن الروميات والفارسيات والسنديات والهنديات...

فما كان من المرأة الحرة إلا إنها سعت بجسدها الأنثوي لأن تكون خليلة لزوجها بعد أن كانت حليلة؛ مما يسَّر للشعراء إثر هذه المنافسة سبيلا لاقتناص الصور التي تلائم ميولهم في غفلة الرقيب.

إن شعراء العصر الأموي قد استوحوا لغة امرئ القيس، وتشبيهاته وصوره، وقيمه الجمالية؛ واستخدموا عباراته وألفاظه بعينها ...،وقد انعكس ذلك في كثير من أشعارهم؛ ولننظر كيف وُصف جسد الأنثى، في شعر الأمويين؛ كما هو الحال عند عمر بن أبي ربيعة، حين وصف ملامح محبوبته الجسدية، فقال:

إذ بدا الكشحُ والوشاحُ من الد رّ فضلٌ فيه من المرجانِ

قد قَلَى قلبي النساءُ سواها غير ما قلت مازحاً بلساني

وشبهها بالظبي بياضا وصفاء، فقال:

إنّني اليومَ عادَ لي أحزاني وتذكرتُ ما مَضى من زَماني

وتذكرتُ ظبيةً أمَّ رئمٍ هاجَ لي الشوقُ ذِكْرَها فَشَجَاني

ووصف مشيتها، وقامتها، فقال:

يا من لقلبٍ متيَّمٍ كَلِفٍ يَهْذي بِخَودٍ مريضةِ النَّظَرِ

تمشي الهُوَيْنَى إذا مشتْ فضلاً وَهْيَ كمثل العُسْلوجِ في الشَّجَرِ

وإلى وجهها الوضاء زاهي الحسن، قال أيضا:

فلما تواقفنا وسلّمتُ أشرقتْ وجوهٌ زهاها الحسنُ أن تَتَقَنَّعاَ

ومن حسن وصفه لعيني محبوبته، قوله:

لها من الرِّيم عيناهُ وسنَّتُه ونخوةُ السابق المختالِ إذْ صَهَلا

وقال أيضا من قصيدة أخرى:

نظرتُ إليها بالمحصَّب من مِنًى ولي نظرٌ لولا التَّحَرُّج عارِمُ

فقلتُ أَشمسٌ أمْ مصابيحُ بيعةٍ بدتْ لك خلفَ السَّجف أم أنت حالمُ

بعيدةُ مهوى القُرطِ إما لنَوفلٌ أبوها وإما عبدُ شمسٍ وهاشمُ

فلم أستطعْها غيرَ أنْ قد بدا لنا عَشِيَّةَ راحتْ وجهُها والمعاصمُ

معاصمُ لم تضربْ على البُهم بالضُّحى عَصَاها ووَجْهٌ لم تُلِحْه السَّمَائِمُ

نضارٌ ترى فيه أساريعُ مائهِ صبيحٌ تُغاديه الأَكُفُّ النَّواعِمُ

وأشار، في ذلك، إلى جمالها المشبه بالشمس، وأنها بعيدة مهوى القرط، وهو كناية عن طول عنقها، ثم انتقل إلى وصف وجهها الوضاء، فمعصمها، فكفها الناعم.

وإلى ثغرها وفلج أسنانها، قال:

يَمج ذكيَّ المسك منها مُفلَّجٌ رقيقُ الحَواشي ذو غُروب مؤشر

يَرفّ إذا تَفترُّ عنه كأنه حصىَ بَرَد أو أُقْحوان مَنوّر

وتَرْنو بعَيْنها إليَّ كما رَنا إلى رَبْرب وَسْط الخميلة جُؤْذُر

ومن الشعراء الأمويين أيضا وضّاح اليمن، واسمه: عبد الرحمن بن إسماعيل الحميري، وقد كان رقيق الغزل، عجيب النسيب.

وفي قصيدة له، وصف غنج محبوبته ودلّه، وشكلها الأنيق، ثم عيونها الحوراء، فخصرها الأهيف، وانتهى إلى روادفها الليّنة الملساء، فقال:

يا من لقلبٍ لا يطيـ غُ الزاجرينَ ولا يفيقْ

تسلو قلوبُ ذوي الهوَى وهْوَ المكلَّف والمَشُوقْ

تبلتْ حبابةُ قلبه بالدَّلّ والشَّكلِ الأَنيقْ

وبِعَيْنِ أَحْوَرَ يَرتعي سِقطَ الكَثِيبِ منَ العَقِيقْ

مكحولةٌ بالسِّحر تُنْ شي نشوةَ الخَمرِ العَتيقْ

هيفاءُ إنْ هي أقبلتْ لاحتْ كطالعةِ الشُّروقْ

والرّدفُ مثلُ نقاً تلـ ـد فهو زحلوقٌ زَلُوقْ

الصورة الشعرية لجسد الأنثى في العصر العباسي:

لقد استبحرت الدولة العباسية في الحضارة، وعمّت فيها مظاهر البذخ والترف. ونتج عن احتكاك العرب بغيرهم من الأجناس الكثير من التغيير في أنماط الحياة الاجتماعية، وفي أساليب المأكل والملبس وآداب السلوك.

وأدت كثرة الجواري، في بيوت الخلفاء والأمراء، ومراتع اللهو إلى حالة من الفساد الخلقي، زاد خطرها نشوء طبقة من الغلمان والخصيان، فكان بعضهم يفوق النساء في أساليب الغواية والإفساد. (أحمد طعمة حلبي، "مظاهر الجمال الأنثوي في الشعر العباسي"، مجلة التراث العربي،2006، 2-4)

وعرف الشعر في هذا العصر فنوناً وأغراضاً لم يألفها الشعر العربي من قبل، كالغزل بالمذكر، والخمرة، والميل إلى الأوصاف الحضرية، والعزوف عن العصبية والبداوة. (قاسم حسين صالح، "المرأة موضوعا شعريا في الإبداع العربي"، مجلة الحوار المتمدن، العدد 954،2004، 2-3).

وظل تيار الغزل مزدهراً في هذا العصر، حتى ليخيل إلينا أن كل من غرّد بالشعر قد نظم فيه. وظلت اتجاهاته الإباحية والعفيفة، التي سادت في العصر الأموي، تحتل القسم الأكبر من نتاج شعرائه.

وقد اكتسب الغزل، في العصر العباسي، غنى ومضاء؛ لارتباطه بعاطفة الحب الغلابة في النفس الإنسانية. وأقبل الشعراء إقبالاً كبيراً على النظم فيه، فكثر كثرة بالغة وازدهر ازدهاراً واسعاً. غير أن الاتجاهين اللذين غلبا في العصر الأموي، وهما الغزل العفيف والغزل الصريح، لم يسيرا في العصر العباسي على ذلك النحو المتوازن. فقد أخذ الغزل العفيف في التضاؤل، في عصر تكاثرت فيه النحل والآراء، واحتدمت المنازع والأهواء، وقلما عرف المجتمع العباسي طائفة من شعراء الحب النقي الطاهر كالذين عرفتهم من قبل ... (إبراهيم قادة، *صورة المرأة في الشعر العربي حتى نهاية القرن 8*، رسالة ماجستير، جامعة باتنة-الجزائر،2009، 69 ؛ نبيل أبو علي، "معاني شعر الغزل بين التقليد والتجديد"، مجلة الجامعة الإسلامية-غزة، المجلد 17، العدد الأول،1،2009-37)،

ومن الذين تطرقوا في أشعارهم إلى أوصاف الأنثى الحسية، أبو تمام (أبو تمام، *الديوان*، دار صادر، بيروت، 1997، 121)، فقد وصف مثلا قامة محبوبته، فقال:

وخُوطيَّةٍ شَمْسِيَّةٍ رَشَئِيةٍ مُهَفْهَفَةِ الأَعْلَى رَدَاحِ المُحَقَّبِ

ومنهم أبو نواس(أبو نواس، *الديوان*، مطبعة مصر، القاهرة، 1953، 106) الذي وصف قامة محبوبته بالعتدال طولا وقصرا، فقال:

فوق القصيرة والطويلة فوقها

ووصف قدها بالمشوق، فقال:

فالخَمر ياقوتة والكأس لُؤلؤة في كَفّ جارِية مَمشوقةَ القَدّ

أما عن لون البشرة، قال أبو تمام:

بَيْضَاءُ تَسْرِي في الظَّلاَمِ فَيَكْتَسي نُوراً وتَسْرُبُ في الضيَاءَ فيُظلِمُ

وعن وصف وجهها، بأنها شديدة بياض الوجه، شديدة سواد الشعر، وأنهما متشابهان في الحسن، قال أيضا:

بيضاءُ يحسبُ شعرُها من وجهها لما بدا أو وجهها من شعرِها

ومن الشعراء ابن الرومي(ابن الرومي، *الديوان*، دار الجيل، بيروت، 1998، 96)، وهو الذي وصف وجهها بالحسن والبهاء والغواية، فقال:

لها ناظرٌ بالسحر في القلب نافثُ ووجهٌ على كسبِ الخطيئات باعثُ

وعن العيون، قال أبو الطيب المتنبي(المتنبي، *الديوان*، دار الكتاب العربي، بيروت، 2004، 154):

رَامِياتٍ بأسْهُمٍ رِيشُها الهُدْ بُ تشقّ القلوب قبل الجلود

وقال أبو تمام:

يَظَلُّ سَرَاةُ القَوْم مَثْنَى ومَوْحَداً نشاوى بعينيها كأنَّهمُ شربُ

أما الخدود، فقد وصفت بأوصاف متنوعة، كلونهما المورد في قول ابن الرومي:

وزَهاها منْ فَرْعِهَا وَمِنْ الخَدَّيْ نِ ذاكَ السَّوادُ والتَّوْرِيدُ

وقول أبي نواس أيضا:

وذاتِ خَدّ مُوَرَّدْ فَتّانَةِ الْمُتَجَرَّدْ

وأما الأنف، فإن جماله، فيكمن في كونه صغيرا دقيقا مرتفعا، كما قال ابن الرومي:

حوراءُ في وَطَفٍ قنواهُ في ذَلَفٍ لَقَّاء في هَيَفٍ عجزاءُ في قَبَبِ

وأما الثغر والأسنان، فللشعراء فيه مذاهب؛ حيث يرى ابن الرومي أن الجمال فيه مقصور على الرقة، فقال:

رِقاقَ الثنايا عِذَابَ الغُروبِ صِغارَ القلوبِ ضِعافَ القُوى

ويرى البحتري(البحتري، *الديوان*، دار المعارف، القاهرة، 1963، 554/1) أن أسنان محبوبته نور يتحول فيه ظلام الليل الداجي إلى نهار أبيض وضيئ؛ لمجرد ابتسامتها، فقال:

ويرجعُ الليلُ مبيضًّا إذا ابتسمتْ عن أبيضٍ خَضِلِ السِّمْطَيْنِ وَضَّاحِ

وأما عنق المرأة، فقد وصفه البحتري وابن الرومي بأنه يشبه عنق الغزال طولا وحسنا؛ فقال الأول:

لها جِيدُ الغَزالِ وَمُقْلَتاهُ ولمْ تُلْمِمْ بِشِبْهِ شَوَى الغَزَالِ

وقال الآخر:

ذات جِيدٍ يُزْهَى على كل عقد وجبين يزهى على كل تاجِ

وعن صدرها وناهديها المصقولتين، قال أبو تمام:

مصقولةٌ سترتْ عنا ترائبها قَلْباً بَرئياً يُنَاغِي ناظِراً نَطِفَا

وقال ابن الرومي:

ناهداتٍ مطرّفاتٍ يُمانِعْ نَكَ رُمَّانَهُنَّ بالعُنَّابِ

وأما البطن، فجماله، عند هؤلاء، في ضموره ودقته وليونته ونعومته. وقد قال المتنبي:

كلُّ خَمْصَانَةٍ أَرَقُّ منَ الخَمْـ ـرِ بقلبٍ أَقْسَى منَ الجُلْمودِ

خاتمة:

ومن خلال هذا المسح العابر لوصف الجسد الأنثوي، من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي، تبين لنا أن شعرية صورة المرأة الحسية لم يغادر إطلاقا خيال الشعراء، غير أن الشعراء اختلفت خيالاتهم وعواطفهم وتصوراتهم لهذا الجسد باختلاف الطبائع والبيئة والقدرة اللغوية، كنسق للتعبير وأداة لتجسيد فلسفة الخيال. **ومن الائتلافات والاختلافات التي تم رصدها:**

-إن الصورة العامّة التي ينهض عليها وجود المرأة، في الشعر الجاهليّ بعامّة، وفي المعلّقات بخاصّة؛ تتمثّل في أُنْثَوِيَّتَها؛ فكانت لديهم، كما يبدو ذلك من كثير من النصوص الشعريّة، مجرّد جسد غضٍّ بضٍّ، يتلذّذ به الرجل، دون أن تكون شيئاً آخرَ متمَثِّلاً في شيء آخر.

- وإن وصف المرأة، لدى امرئ القيس وأترابه، انصرف في جملة منه إلى أعضاء جسدها، خصوصاً إلى شَعرها، وعينيها، وثغرها، وأسنانها، ونحْرِها، ومتْنِها، وَبَشَرَتِهَا، وقامتها، وبَنانها، وساقَيْها، وذراعيها؛ ثم انتقل ليصف لنا أشياء أخرى تحيط بالجسد، كالملابس، وصفة المشي من تمايل وغيره، وأنواع الزينة المعروفة كالعطر، والحليّ،...

-كما أنه، وبالتأمل، في هذه الأوصاف التي بلغت، عبر المعلّقات، ما يقرب من ثلاثين وصفاً، نلاحظ أنّها طَوّقَتِ المرأة من أخمصِ قدميها إلى قُلّةِ رأسِها، بحيث لم تكد تغادر منها شيئاً ممّا يمكن أن توصف به، جمالياً، إلا وصفته وصفاً.

-على أنّ الحديث عن ملابس المرأة لم يكد يرد إلاّ في معلّقتي امرئ القيس وطرفة. ولم يكن ذكرها وصفاً مقصوداً لذاته، كما صادَفْنَا بعض ذلك في وصف أعضاء جسد المرأة، ولكنه كان عارضاً. وقد نقرأ لدى امرئ القيس، من هذه الملابس، لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ، وعدم الانتطاق عن التفضّل أيضاً، كما نقرأ الدِّرْع، والمِجْوَل، والمُلاءِ المذيّل، وثياب النوم، والمِرْط المرحّل. بينما نقرأ لدى طرفة: البُرْد، والمِجْسَد، وأذيال السَّحْل الممدَّد، وسَعة قِطَابِ جَيْبِ المرأة، والبُرْجُد...

-كذلك يكاد شعراء الجاهلية، وأصحاب المعلقات بخاصة، يتفقون على وصف أعضاء من جسمها دون أعضاء أخرى، فنجدهم يركّزون على وصْفِ الثغر والأسنان، والصدر، والعنق، والشعر، والجبين، والبنان، والقامة، والساقين، والروادف؛ وأنهم كانوا يُؤْثِرُون القامة الطويلة، والخِلْقة الضخمةَ نسبيا، والشعَر الفاحم الطويل، والساقين الممْتلئتين، وهي أوصاف يحبّها البدو لا أهل الحضارة الرقيقة. وغالبا ما وجدناهم يكرّرون ما جاء عند امرئ القيس.

-وأما في العصر الأموي فقد وُصف شعره بعصر الرجعة، إذ جعلت الحياة الأدبية تُراجع فيه نشاطها الذي عرفته في العصر الجاهلي، كما أرادت أن تجعل من نشاطها فيه صورة من ذلك النشاط الجاهلي وامتدادا له.

-وإن عودة شعراء الغزل الأموي إلى نحت نفس الصورة للمرأة الجاهلية، تثبت وجود صورة أقدم للمرأة، هي المثال أو الأصل الذي احتداه كل الشعراء. فعلى سبيل المثال، أتت صورة المرأة في شعر عمر بن أبي ربيعة مماثلة لصورة المرأة الجاهلية؛ نظرا للتشابه في المحاسن المعتمدة على مغازلة المخيال الذكوري، من خلال مرجعية اللغة كنسق فحولي.

-إن العرب بهذا منذ الجاهلية حتى العصر الأموي، رسموا امرأة واحدة للجمال الأنثوي المثالي، فلم تختلف أوصافها عند جميع الشعراء إلا في تفاصيل صغيرة لم يكن حظ الاختلاف فيها واردا؛ فيما يخص البدانة وعظم الردف والأوراك، فقد صور الشاعر الجاهلي حبيبته: بدينة سمينة ضخمة الأوراك، عظيمة العجز؛ ذلك لتأثره بالقيم الجاهلية التي كانت سائدة في عصره، فبدانة المرأة دليل على ترفها وغناها؛ وهذا، بدوره، دليل على أن الشاعر فارس شجاع في الوصول إلى بنات الطبقة المُتميّزة في عصره.

- كما نلاحظ انتفاء عناصر التميز والتفارُق بين العصرين: الجاهلي والأموي، على المستوى المتخيّل الفنّي.

- وقد اكتسب الغزل في العصر العباسي غنى ومضاء؛ لارتباطه بعاطفة الحب الغلابة في النفس الإنسانية.

- إن الاتجاهين اللذين غلبا في العصر الأموي، وهما الغزل العفيف والغزل الصريح، لم يسيرا في العصر العباسي على ذلك النحو المتوازن. فقد أخذ الغزل العفيف في التضاؤل، في عصر تكاثرت فيه النحل والآراء، واحتدمت المنازع والأهواء، وقلما عرف المجتمع العباسي طائفة من شعراء الحب النقي الطاهر كالذين عرفتهم من قبل ...

-وإنّ المرأة التي وصفها شعراء الدولة العباسية، هي امرأة متخيلة مفترضة، وليست- في الأكثر- امرأة واقعية.

-كما لم يكن تصوير مفاتن الأنثى لديهم مقصودا لذاته، وإنما كان مقدمة للأغراض أخرى، أهمها المدح.

-ولم تختلف الأوصاف الحسية الأنثوية في مخيال وواقع الشاعر العباسي عن مثيلاتها لدى الشعراء في العصرين السابقين، إذا اعتبرنا صدر الإسلام رأسَ العصر الأموي.

-إن اللغة الشعرية لدى الشعراء العباسيين وظّفت أحسن توظيف في توليد الألفاظ والمعاني، وإذكاء نار الفكر الوقاد، الذي قفز من الوصفية الخيالية إلى الوصفية الواقعية- التي تحكمها البيئة والحالة الاجتماعية- من دون زيف أو غلو.

-وبقيت جميع أوصاف الجسد الأنثوي مهيمنة على الفلسفة الشعرية العباسية، ولم تنفرد-إجمالا-عما كان في العصر الجاهلي والدولة الأموية.

قائمة المصادر والمراجع:

-الأصفهاني، الأغاني، مطبعة الساسي، مصر(1323ه).

-ابن الأنباري، شرح المعلقات العشر، المكتبة العصرية، صيدا-لبنان(2004).

-أيمن اللبدي، المرأة والشعر العربي، ناشري، فلسطين(2003).

-البحتري، الديوان، دار المعارف، القاهرة (1963).

- التبريزي، شرح المعلقات السبع، دار المحابر، الجزائر(2011).

-أبو تمام، الديوان، دار صادر، بيروت (1997).

- ابن الرومي، الديوان، دار الجيل، بيروت(1998).

-عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب (2006).

-ابن عبد ربه، العقد الفريد، دار الكتاب العربي،(د.ت).

-ابن قتيبة، الشعر والشعراء، عالم الكتب، بيروت(2003).

-المتنبي، الديوان، دار الكتاب العربي، بيروت(2004).

-محمد بدر معبدي، أدب النساء في الجاهلية والإسلام، مكتبة الآداب، مصر(1983).

-أبو نواس، الديوان، مطبعة مصر، القاهرة(1953).

الرسائل العلمية:

-إبراهيم قادة، صورة المرأة في الشعر العربي حتى نهاية القرن 8، رسالة ماجستير، جامعة باتنة-الجزائر(2009).

المقالات:

-أحمد طعمة حلبي، "مظاهر الجمال الأنثوي في الشعر العباسي"، مجلة التراث العربي(2006).

-قاسم حسين صالح، "المرأة موضوعا شعريا في الإبداع العربي"، مجلة الحوار المتمدن، العدد 954. (2004).

-نبيل أبو علي، "معاني شعر الغزل بين التقليد والتجديد"، مجلة الجامعة الإسلامية-غزة، المجلد 17، العدد الأول(2009).

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊